الأدب في سير أعلامه:

١٣ - تولســـتوى

« قبة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه »

للأستاذ محمود الخفيف

في القوقاز

قرأ ليو كثيراً في القوقاز وهو منذ حداثته لا يسلو الكتب مهما صرفته عنها أهواء شبابه ؛ فاذا عاد إليها أقبل يقرؤها في جد وعناية قراءة تدبر واســـتمتاع ، ولم يفته كتاب مما كان يصدر يومذاك في روسيا أو في أوروبا ، كذلك لم تفته صحيفة أدبية تعنى بألوان الأدب العاصر وتهتم بنقده ، وكان في مقدمة تلك الصحف مجلة « العاصر » التي نشرت له أول آثاره ...

وكان لترجنيف جانب كبير من اهتمامه ، وكان ترجنيف الذي يكبره كما أسلفنا بعشرة أعوام قد نشر سنة ١٩٤٧ أول كتاب له وهو « مذكرات رجل صيد » الذي سبق أن أشرنا إليه ، فكان ليو يعيد قراءته بين الحين والحين ؛ وامل ما استمتع به ترجنيف من ذهاب الصيت بكتابه الأول هذا قد ألقى في نفس ليو تولستوى أحلام المجد الأدبي وبخاصة بعد أن صادف كتابه « عهد الطفولة » ما أشرنا إليه من نجاح

وكان لجوجول كذلك منزلة عظيمة في نفس تولستوى ، فكان يطيل التأمل في قصة « الأنفس الميتة » وفي قصته الفكاهة « في » ...

ولم يسه تولستوى عن الأدب الأوروبي فكان يقرأ آثار أعلامه جميعاً ، وكان يتتبع ما ينشر دكنز في شغف كبير ويقدمه على كل قصصي سواه ؛ وكذلك كان عظيم الاعجاب بالكاتب الانجليزي ستيرن الذي ذكرنا اسمه قبل فيمن ذكرنا ممن قرأ الفتى آثارهم ؛ كان ستيرن من رجال الدين ولد سنة ١٧١٣ وتوفي سنة ١٧٦٨ فهو من أعلام القرن الخامس عشر وقد اشتغل بالأدب ، وامتازت مؤلفاته بروح الفكاهة والعاطفة، وبلغ في قوة خلق الأشخاص وتصويرهم مالا يبلغه إلا الأفذاذ القلائل ، فكان لآثاره ميزة الأصالة والنبوغ ، وقد نشر قبيل وفاته أشهر كتبه وهو « الرحلة العاطفية » ، وقد كان تولستوى شديد التأثر عظيم الانجذاب نحو هذا الكتاب ؛ يضعه في مستوى آثار روسو من حيث قيمته في ذاته ومن حيث أثره في نفسه ...

وكثيراً ما كان الفتى يطيل التأمل في ساعات فراغه ، أو عقب قراءته كتابا من كتبه ، وكثيراً ما كان يثبت تأملاته في كراسته فكان لهذه الكراسة بذلك خطرها كمصدر من مصادر تاريخ حياته

وكان أول ما تأمل الفتى في الدين ولما يمض عليه في القوقاز غير أيام ، ولم تكن هذه أول مرة يتجه فيها تأملهذا الاتجاه ، فقد سبقتها مرات ومرات ؛ وقد أشرنا قبل إلى ما ذكره في مستهل كتابه « اعترافاتي » عن ذلك الصبي الذي تحدث إليه ذات مرة وهو في نحو العاشرة عن الله ووجوده ، وكيف تلقى ذلك الحديث في اهتمام وأفضى به إلى اخوته ... ومما ذكره كذلك في مستهل ذلك الكتاب قوله « لقد عمدت ونشئت على العقيدة المسيحية الأورثوذكسية ؛ وقد علمت هذه العقيدة في طفولتي وطول أيام يفاعتي وشبابي ؛ ولكني عندما تركت الجامعة وأنا يومئذ في الثامنة عشرة لم أعد أصدق شيئاً مما علمته.. وقد ذهبت المعتقدات الدينية التي علمتها في صغرى ؛ ونظراً لأني منذ سن الخامسة عشرة بدأت أقرأ الآثار الفلسفية ، فإن رفضي هذه المعتقدات كان أمراً شعوريا في سن مبكرة جداً ؛ فمنذ سن السادسة عشرة انقطع ذهابي إلى الكنيسة وانقطع سوى ؛ ولم أصدق ما لقنت في طفولتي ولكني كنت أصدق شيئاً ما ؛ أما ما هو ذلك الشيء فما كنت أستطيع وقتها أن أقول ، لقد صدقت بالله أو على الأصح إني لم أنكر الله ، ولكني لم أستطع أن أقول أي إله هذا ، وكذلك لم أنكر المسيح ولا تعاليمه ، ولكن مم كانت تتألف تلك التعاليم ؛ ذلك أيضاً ما لم أكن أستطيع أن أقوله ...

وإذا رجعت إلى تلك الحقبة من عمري أرى الآن في وضوح أن إيماني ، إيماني الحقيق الذي لم يكن لي غيره ، ذلك الذي كان يحفز حياتي بصرف النظر عن غرائزي الحيوانية هو عقيدتي في بلوغ الكمال النفسي ، ولكن مم يتألف هذا الكمال وما غرضه ؟ ذلك مالم أستطع أن أبينه ، لقد حاولت أن أكمل نفسي عقلياً ، فدرست كل ما استطعت أن أدرس ، كل شيء ألقته الحياة في طريقي ، وحاولت أن أكمل إرادتي فوضعت

قواعد أخذت نفسي بأتباعها ، وكلت نفسي من ناحية البدن فدربت قوتي ونشاطي بكافة أنواع التمرينات ، وعودت نفسي التحمل والصبر بكافة ضروب التقشف ؛ واعتبرت كل أولئك وسائلي نحو الكمال ؛ وكان أول ما اتجهت إليه الكمال الأدبي ثم أعقب ذلك وحل محله الكمال من جميع الوجوه ، أو الرغبة في أن أكون أحسن حالا، لا في نظري فحسب ولا عند الله وحده ، ولكن في نظر غيري من الناس ... وسرعان ما اتجهت محاولاتي بعد ذلك إلى رغبة أخرى هي أن أكون أقوى من غيري وأبعد منهم صوتاً ، وأعظم خطراً وأكثر ثراء ...

هذا هو مبلغ اهتمام الفتى بالدين وكل ما هو من الدين بسبب منذ حداثته ، أما اهتمامه به في القوقاز فتجد شاهداً عليه فيما أثبته هناك من تأملاته ومنها قوله بعد أن ذكر أنه لم ينل ليلته بسبب صلاته ونسكه لله « إذا أريد بالصلاة أنها استغفار أو شكران فاني إذاً لم أكن أصلي ؛ بل إن رغبة كانت تتملكني نحو شيء طيب سام . أما عن كنه ذلك الشيء فذلك ما لا أستطيع تفسيره ، ولو أنني أشعر شعوراً تاما ماذا يكون ذلك الذي رغبت فيه ؛ إن الذي رغبت فيه هو أن أذوب فأمتزج بذلك الجوهر المحيط بكل شيء وأن أستغفره عن آثامي ... لا ، ليس هذا ما رغبت فيه لأني شعرت إذ منحني هذه اللحظة المباركة أنه بهذا منحني كذلك المغفرة »

والذي يستخلص مما كتبه تولستوي حتى هذه السن أنه لم يفقد الإيمان لحظة بقوة مطلقة في هذا الوجود ، وكان مرد إيمانه إلى عاطفته وإن كان يشعر أنه لا يستطيع أن يصالح عليها عقله ومنطقه ، فلقد كان شديد الشك في صورة العقيدة كما تضمها الكنيسة الأورثوذكسية الروسية ، ولذلك عظم الصراع بين عاطفته وعقله ... وتراه يتساءل ذات مرة في دفتره معتمداً على العقل والقياس قائلا : حتى ولو أن الجسم والروح شيئان ، وأن الجسم يلحقه الفناء ، فماذا في ذلك من البرهان على فناء الروح ؟ لقد رأيت الجسم يموت ، وعلى ذلك أستخلص أن جسمي أنا سوف يموت ، ولكن ليس في ما يريني أن روحي سوف تموت ، وعلى ذلك فبناء على ما يقوم في فكري أقرر أنها خالدة »

وقال عن الصلاة في موضع آخر « هل الصلاة لازمة ؟ وهل هي ذات فائدة ؟ إن التجربة وحدها هي التي تريني مدى ما يكون في ذلك من اقتناع. إني أصلي هكذا . رب نجني من السوء ومن الغواية أن أفعل السوء ، وهب لي الخير أوهب لي القدرة على أن أعمل صالحا ؛ وسواء أكان خيراً أم كان شراما أعمل فان مشيئتك هي النافذة »

وعاد يبحث عن الله في قوله « هل لي أن أنجح محاولا مرية فيه فأكون عن الله فكرة واضحة وضوح فكرتي عن الخير ؟ لقد باتت هذه الرغبة أقوى رغباتي !

إن فكرة الإنسان عن الله هي وليدة تفطنه إلى ضعفه هو ... ولم يقنعني بوجوده و بصلتنا به شيء أقوى من هذه الفكرة : ألا وهي أن كل مخلوق قد وهب من الكمنة ما يتفق مع ما يرغب فيه من مطالب، لا شيء أكثر من ذلك ولا شيء أقل؛ ولأي غرض وهب الإنسان قوة إدراك مثل هذه المسائل وهي المسألة الأولى والأبد واللانهاية والقوة المطلقة؟ إن القدمة فيما أتحدث عنه هي فروض تؤيدها علامات ، وإن الإيمان حسب تقدم المرء يتمم صحة هذه الفروض » .

وتشتد حيرته بعد ذلك فيقول : إني عاجز عن أن أثبت لنفسي وجود الله ، أو حتى عن إيجاد قرينة مقنعة به ؛ كما أني لست أرى ثمة ضرورة حتمية لهذا الارادك ، إنه لأيسر وأبسط أن نتخيل الوجود الأبدي للكون بنظامه العجيب الذي لا يمكن تصور مداه ، من أن نتخيل وجود خالق له ... إن تطلع الجسم والروح إلى السعادة هو السبيل الوحيدة إلى تفهم أسرار الحياة ، وإذا تصادمت نوازع الجسم ونوازع الروح فيجب أن تهيمن نوازع الروح لأن الروح خالدة كالسعادة التي تنتجها ... وإن تحقيق السعادة هو السبيل لتقدم الروح ورقيها ... إني لست أفهم ضرورة وجود الله ، ولكني أومن به وأصلي له كي يعينني على أن أدركه » .

وستنطوي سنوات كثيرة قبل أن يثير تولستوي ما أثبته في كراسته في نوفمبر سنة ١٨٥٢ وهو قوله « إني أومن بإله واحد لا تدركه الأبصار وأومن بخلود الروح وأومن بالجزاء على أعمالنا؛ وما يضيرني أني لست أفهم خفايا الثالوث ومولد ابن الله ؟ إني أجل عقيدة آبائي ولست أجحدها » .

ويتأمل الفتى غير الدين في أمر يتصل بالأخلاق فيقول « إن الضمير خير رائد لنا وخير ما نعول عليه من هاد ، ولكن ما هي الشواهد التي بها نميز صوت الضمير من بين الأصوات الكثيرة التي تنبعث في أنفسنا ، على أنه الصوت الوحيد الحق ؟ ذلك لأن